Archive of SID

أ. د. علي زيتون
أستاذ في الجامعة اللبنانية

الإعجاز القرآني وعلم الدلالة

في تمهيد الشهيد الثاني

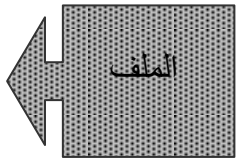

تمهيد:

يتناول هذا البحث علم الدلالة العربي الإسلامي من خلال كتاب الشهيد الثاني (قده) (التمهيد)، لما يمثله هذا الكتاب من ثمرة لجهود تاريخية متتابعة بذلها علماؤنا الأجلاء على مرّ التاريخ مستفيدين من إضافة (علم الأصول) الى (علوم اللغة العربية) خصوصا أن الشهيد الثاني (قده) كان ذا منهج واضح في بحثه عن الدلالة يرتكز في جانب أول الى أسئلة اللغة العربية التي طرحتها على نفسها بواسطة ثنائيات عديدة: هي ثنائية (اللفظ/ المعنى)، وثنائية (الحقيقة/ المجاز)، وثنائية (التوقيف/ المواضعة)، وفي جانب آخر الى إمساك ذلك المنهج

www.SID.ir

Archive of SID

بالعلوم الخاصة بالدلالة واستخدامها استخداما خلاقا في أثناء بحثه عن مدلول النص القرآني بوصفه الحكم الشرعي. ونقاط هذا البحث الأساسيّة أربع: علم الدلالة التمهيد من المنهج اللساني الى المنهج البراغماتي، الشهيد الثاني وأسئلة اللغة العربية.

1- علم الدلالة في الغرب: الدلالة في الغرب الحديث، موضوع مجموعة متمايزة متصلة هي: السيمانتي (Ls semantique) والسيميولوجيا (les semiologie)، وعلم تحليل الخطاب البراغماتي، ولقد ترجمت الى العربية مؤلفات عديدة تتناول هذه العلوم. ومن يتجاوز رداءة العديد من تلك الترجمات يقع في لبس المصطلح واضطرابه[1]، فلا يكاد يفقه أساسيّات هذين العلمين، ويضطر الى بذل جهود كبيرة من أجل استيعابها.

وعلم الدلالة (السيمانتيك) «علم لغوي حديث يبحث في الدلالة اللغوية التي يلتزم فيها حدود النظام اللغوي، والعلاقات اللغوية»[2]. استناداً إلى العلامة السوسيرية في الدراسات اللغوية[3]، فيكون الفضل في الدلالة لجذر العلامة اللغوية ثم لصيغتها[4]. ويتعدّى هذا العلم دراسة معاني

www.SID.ir

Archive of SID

المفردات الى دراسة معاني الجمل والملفوظات على حدّ سواء [5]، بما يراعي تلازم النحو والدلالة [6]. وإذا أردنا أن نختصر حقيقة هذا العلم قلنا أنه المنهج اللساني في دراسة الدلالة.

أما هدف علم الدلالة الآخر (السيميولوجي) فهو «صوغ الممارسات المتجاوزة للسانيات وقولبتها» [7]، ولذلك فإن مادة هذا العلم تتعدى العلامة اللغوية الى العلامة غير اللغوية: إشارات السير، حركات الجسد، اللباس، غيرها [8]. أمّا هدف المنهج البراغماتي فهو الإمساك بدلالة الخطاب التي لا يستطيع النظام اللغوي وحده تحديدها. يشاركه في ذلك الظرف وزمان الخطاب ومكانه.

2- الدلالة وحضارة النص: لم يكن العرب غرباء عن هذه العلوم [9]، بل على العكس من ذلك اشتغلوا بهما في وقت مبكر من مرحلة ظهور القرآن الكريم. فالحكم الشرعي «خطاب الله تعالى، أو مدلول خطابه» [10]. على حدّ تعبير الشهيد الثاني يتسع لمجمل حياة الإنسان وسلوكه سياسة وثقافة واجتماعاً واقتصاداً. وهو الى ذلك (مبتدأ) في جملة الشهيد خبرها (خطاب الله تعالى أو مدلول خطابه). والمبتدأ عند النحاة والأصوليين

www.SID.ir

Archive of SID

معاً «منحصر في خبره دون العكس»[11]، ويشكل هذا وعياً مبكراً بأن الحضارة العربية الإسلامية هي (حضارة النص القرآني)[12]. كيف لا وأعظم مقدمات (علم الفقه) عند الشهيد الثاني علمان هما: «علم الأصول وعلم العربية، إذ الأول قاعدته ودليله، والثاني مسلكه وسبيله». وعلم الفقه مستقطب حول نص أساسي وحيد هو النص القرآني. ويعني ذلك أن العرب قد انطلقوا من أن الفكر لغة واللغة فكر، يقتضي كل منهما الآخر. ويستتبع ذلك أن يكون البحث العربي في الدلالة نتاجاً لحضارة ذلك النص[13]. الذي استقطب مختلف العلوم العربية حول نفسه[14]، لا بل فعل أكثر من ذلك حين أقام تماسك تلك العلوم وتكاملها[15]. وليس غريباً أن تكون الحضارة العربية الإسلامية فعلا لغوياً[16]. والكون بالنسبة إليها فعل لغوي مرتكز على قوله تعالى: ﴿كن فيكون﴾ والقول بأن الحضارة العربية فعل لغوي إنما يميّزها من تلك الحضارة التي تشكّل أجوبة لأسئلة يطرحها الإنسان، في مرحلة من تاريخه، حول كيفية تحقيق حاجاته أو كيفية مواجهة التحديات التي تهدد وجوده سياسية كانت، أم اقتصادية أم ثقافية، أم اجتماعية. وانطلاق الحضارة العربية الإسلامية

www.SID.ir

Archive of SID

من النص الموحى به الى الرسول يعني أن هذا النص هو قراءة للوجود وتسمية لأشيائه ومكوناته، أي أنه نظام دلالي أساسي تنبع منه جميع الأنظمة الدلالية سيمانتيكية كانت أم براغماتية أم سيميولوجية، وفي كل الأزمنة. وهذا ما ذهبت إليه جوليا كريستيفا حديثا حين رأت أن الدلائلية (السيميولوجيا) هي علم الإيديولوجات [17]، بما يعني أن دلالة أي علامة غير منفصلة عن الايديولوجيا التي تنتظمها.

أما الثقافة العربية الإسلامية المبنية على النص القرآني، فإنّها مرتبطة بخصوصية هذا النص الذي يجمع وظيفة النص التداولي النفعي إلى وظيفة النص الإبداعي في اعتبار اللغة غاية بحد ذاتها. ويتجاوزهما إلى خاصية الإعجاز [18]، مقدماً نفسه على أنه الرؤية المكتملة الى الوجود القادرة على الإجابة عن الأسئلة التي تطرحها سيرورة الحياة. إذا كان النص، أي نص «منبع النشاط، والمتعالي على كل نشاط» [19]. في الوقت نفسه، فإن النص القرآني سيشكل سلطة مرجعية للعقل العربي [20].

كيف لا والملتقى العربي في تكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي والسياسي جزء من دلالة

www.SID.ir

Archive of SID

ذلك النص [21]؟ وهو حين يعود إليه باحثاً عن دلالته يدرك أن الدلالة لا تأخذ معناها مما تقوله لغة النص فقط، ولكن من طبيعة الخطاب القرآني أيضاً [22] ويحتاج في ذلك إلى منهج سيميولوجي، ومن ثم إلى آخر براغماتي، لا إلى لساني فقط؛ لأن السيميولوجيا تستطيع أن ترى النص إشارة يتضمن دالها القصد [23]، وتتجاوز بالبراغماتية ذلك الدال الى الظرف الذي يحيط الخطاب البشري.

3- دلالة التمهيد من المنهج اللساني الى المنهج البراغماتي:

رأى بعضهم «أن علم الأصول على وجه الإجمال، إنما هو بحث في الدلالة لفظاً وجملة، نصّاً وسياقاً» [24]، ولعلهم قصدوا بالسياق الظرف المحيط بالكلام، بما يعني أنهم رأوا أن هذا العلم قد تعاطى مع اللغة بوصفها نظاما مرتبطاً بظرف محدد. والعودة الى كتاب الشهيد الثاني (تمهيد القواعد) الذي يعد نموذجاً جيداً لكتب هذا العلم، يشكل مدخلاً سليما للتعرف الى أبعاد هذه المسألة.

ولقد تنوعت المباحث اللغوية في هذا الكتاب. عالج بعضها اللفظ معجماً وصرفاً، وبعضها الآخر الجملة. وتعدى قسم منها

www.SID.ir

Archive of SID

اللساني إلى البراغماتي فالسيميولوجي.

3-1 اللفظ والدلالة: يواجه القارئ قلقاً عميقاً عند الشهيد الثاني في أثناء بحثه عن حقيقة الدلالة. فكلمة (موالي)، بالنسبة إلى عاتق العبيد، معتوق، كلمة مشتركة تفيد الذين اعتقوه من قبل، والذين أعتقهم من الذين اعتقوه من قبل، والذين أعتقهم من بعد. ولذلك فهو حين يوصي لمواليه بمال فإن هذه الوصية مشكلة بالنسبة إلى الشهيد الثاني يرى فيها أربعة وجوه: «أحدها: إنه يقسم بينهما لتناول الجمع المعرف لهما، حيث لم يشترط فيه اتحاد المعنى، أو لأن المشترك يحمل على معنييه. والثاني: صرفه إلى الموالي من أعلى، لقرينة مكافأتهم. والثالث: لهم من أسفل، لجريان العادة بكونهم محتاجين غالبًا. والرابع البطلان، لأن المشترك لا يحمل على معانيه ولا على بعضها بغير قرينة والفرض انتفاؤها هنا»[25].

وتعبّر هذه الوجوه الأربعة عن قلق معرفي وضعنا أمام أربع دلالات محتملة بنيت كل واحدة منها على حجة قويّة. الإطلاق في الوجه الأول، والمكافأة المبنية على الوفاء المطلوب في الثاني، والحاجة الداعية في الثالث، وغياب القرينة في الرابع. ولا يعني

www.SID.ir

Archive of SID

ذلك أن الشهيد (قده) يزجي إلينا أجوبة للتسلية، ولكنه يعبر عن إحساسه بالمسؤولية الدقيقة والخطيرة التي رتبها القرآن الكريم على العلماء بوصفه خطاباً وحكماً شرعياً في الوقت نفسه. والكلمة المشتركة التي أوجدت مثل هذا التشتت في الدلالة هي جزء من نظام اللغة الذي يؤسس الكلام عليه. وإذا وجد الشهيد الثاني (قده) أن البحث عن الدلالة من خلال هذا النظام الذي قام على أساسه علم الدلالة (السيمانتيك) غير مجد بشكل كامل، لجأ إلى البحث عن الدلالة من خلال نظام قائم خارج نظام اللغة ومتصل به في الوقت نفسه، أي من خلال المنهج البراغماتي الذي يعول على الظرف المحيط بالكلام، الوصية هنا. فكلام الموصي غير منفك عن ظرفه، ولا عن مراحل حياته. وهو محرر يستدعي تحريره مكافأة من حرره، وهو محرر يستدعي فقر المحرر الجديد أن يدعم بتركة محرره. ولا يمكن فك لبس تلك الوصية باللغة وحدها. الظرف حاضر قوي يسمح للبراغماتية بالتدخل في تذليل ذلك اللبس. ولا يصل القارئ من خلال البراغماتية الى مستقر الكلام الدلالي. يحتاج الى المنهج السيميولوجي ليكمل ما بدأه.

www.SID.ir

Archive of SID

إذا يتحول مدلول الكلام الناجم عن إعمال المنهج اللساني ومن ثم البراغماتي إلى علامة سيميولوجية مكونة من دال ومدلول، هو تلك الأوجه التي عددها للوصية. وهذه الأوجه لم تصل بالشهيد الثاني (قده) إلى بر اليقين، فظل الأمر معلقا من غير ترجيح لأي منها. وعدم الترجيح إشارة إلى أن الكلام الذي لا يشكل نصا مبنياً على قصدية قابلة للتأويل خصوصاً أنه خطاب تداولي لا إبداعي ولا قرآني.

وتعامل الشهيد الثاني (قده) مع الدلالة الصرفية مثلما تعامل مع الدلالة المعجمية. فبنية (اسم الفاعل) الصرفية التي تطلق «على الحال، وعلى الاستقبال، وعلى الماضي» إطلاقاً حقيقياً عند النحاة [26]. مختلف حول كونها حقيقة أو مجازاً في الماضي عند الأصوليين. ولقد استطاع الشهيد الثاني أن يربط ذلك الاختلاف بالانتماء العقدي للمختلفين. فالشيعة والمعتزلة يقولون أن اسم الفاعل هو حقيقة في إطلاقه على الماضي، والأشاعرة أنه مجاز. وهو إن لم يصرح بالتعديل كاملاً، إلا أنه ألمح إليه عندما أشار إلى أن موقف الأشاعرة، كان بسبب اعتقادهم بأن الصيغ توقيفية [27].

www.SID.ir

Archive of SID

والتوقيفية مرتبطة بقوله إن كلام الله قديم، وهو معنى قائم في ذات الله منذ الأزل، بعكس الشيعة والمعتزلة الذين قالوا باصطلاحيّة الصيغ المرتبطة بقولهم إن كلام الله محدث وهو تلك الأصوات والألفاظ القرآنية. ولذلك فإن قول القائل لامرأته عند الأشاعرة: «أنت طالق، مختصّ بالحال والاستقبال من دون الماضي؛ لأن دلالة اسم الفاعل على الطلاق من المشترك اللفظي بين الحال والمستقبل، ولا يتعدى إلى الماضي إلا مجازاً» [28]. وتشكل معالجته هذه إشارة واضحة إلى الوعي المبكر بمشكلات الدلالة. فهو بعد أن قاده إحساسه المرهف إلى تجاوز ما بتنا نعرفه بالمنهج اللساني إلى المنهج البراغماتي فالسيميولوجي، رأيناه يربط الموقف الدلالي بالانتماء العقدي ربطاً يدل على إمساكه بحقيقة أهمّ تفسّر ما التبس علينا من قضايا الدلالة في الأبحاث اللغوية العربية القديم. فالدلالة، هنا، مرتبطة بظروف المتكلم العقدية وليس بالنظام اللغوي وحده. وما يؤكد اعتماد الشهيد الثاني على الظرف المحيط بالكلام في محاولة الإمساك بأبعاده الدلالية إحصاؤه أربعة عشر مذهباً في قوله تعالى: ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾. وانفتاح

www.SID.ir

Archive of SID

الكلام بهذا القدر من الاتساع مدعاة للبراغماتية التي يستطيع منهجها وحده تحديد المقصود اعتماداً على الظرف المحيط بأخذ الأسلحة.

3-2 الجملة والدلالة: ويتناول الشهيد الثاني دلالة الجملة بالطريقة نفسها، إذ افترض ابتداء حين تصدى لقول أحدهم (بع هذا العبد مع هذه الجارية) بأن المتلقي في وضعية من اثنتين: إما أن يعلم إرادة المتكلم اجتماعهما في صفقة واحدة، أو مرد إجراء البيع عليهما بصفقة واحدة أو بصفتين، وإما أن تشتبه عليه الحال[(29)]. وعلم المتلقي بإرادة المتكلم يعني أن القصد معروف من قبله بسبب خبرة أو حديث سابق. ويشير هذا إلى أن القول الذي أمامنا هو جزء من ملفوظ أو نص أكبر منه، أو هو تابع لجزء من الكلام مسكوت عنه هنا، وهو معروف من المرسل والمرسل إليه. وفي حال عدم وجود مثل هذا التقدير، ففي قول الشهيد الثاني (قده): (أن تشتبه الحال)، وفي قوله أيضا: (من احتمال الأمرين معاً أو فرادى) إشارة إلى أن المستويين الصرفي والنحوي للملفوظ غير قادرين وحدهما على تقديم دلالة دقيقة محددة. وهو كما فعل في المرة

www.SID.ir

Archive of SID

السابقة سيلجأ إلى المنهج البراغماتي من أجل الوقوف على حقيقة الدلالة. ولذلك فهو يرى في القول: (بع هذا العبد مع هذه الجارية)، علامة تتجاوز المنهج اللساني لتومئ إلى أن أحد المبيعين ردي والآخر جيد؛ لأنّ من «عادة الناس ضم الرديء إلى الجيد وبيعهما بيعة واحدة» على حد تعبيره، فإن ترجيح هذه الدلالة قائم على جودتها وعلى أنها أمر متيقن. ولا يعني هذا الترجيح أن الشهيد الثاني (قده) قد استسلم لدلالة واحدة. ولكنه على العكس من ذلك يقول: «لا يتعين الأول [الصفقة الواحدة]؛ لأن الثاني أعمّ منه»[30]، تاركاً الأمر معلقاً بأذيال الظرف المحيط بالمكلف والمكلف والمادة موضوع البيع. كما في المرة السابقة وإن لم يكن بالمستوى نفسه؛ لأن الترجيح الغائب هناك وارد هنا بشكل واضح. والبحث عن الناجم من خضوع ذلك المنهج وتبعيته للسياق والقصد، بما يبقي المسافة قائمة باستمرار بين الحقيقة والكلام[31]، ويشكل هذا إدراكاً بأن الدلالة ليست محكومة بالنظام اللساني معجماً وصرفا ونحواً فحسب. ثمة أنظمة مستقلة عن ذلك النظام تحتاجها الدلالة لكي تأخذ حيّزها في الوجود، ذلك الوجود المشكل

www.SID.ir

Archive of SID

باستمرار.

3-3 الشهيد الثاني والمنهجان البراغماتي والسيميولوجي:

تحدّث الشهيد الثاني (قده) عن مفهوم الموافقة الذي يتعلق بملفوظ يتناول حكما ويسكت عن آخر مؤكداً «أنّ الحكم في المسكوت عنه أولى به في المنطوق»[32]. فاستخدامه تعبير (المسكوت عنه) يدخلنا مباشرة في علم الدلالة السيميولوجي؛ لأن علامات هذا النظام الدلالي ساكتة جميعها عن المدلول في الوقت الذي تشير إليه. وقوله: (أولى) لجوء الى المنطق في تعليل إرادة المسكوت عنه. واللجوء الى المنطق دخول في رحاب المنهج البراغماتي الذي يومئ الى الظرف المحيط بالمتكلم والذي دفعه إلى السكوت عن حقيقة يريد إيصالها. ولئن استنتج الشهيد الثاني (قده) من قوله تعالى: ﴿فلا تَقلْ لهُمَا أف﴾ تحريم ضربهما ونحوه من أنواع الأذى»[33]، فإن هَمَّ الحصول على الحكم الشرعي قد أفسد عليه البحث عن الدلالة البراغماتية السيميولوجية التي يكتنزها هذا التعبير. وهي تعظيم مقام الوالدين والترهيب الشديد من التعرض لهما حتى ولو كان الأذى (أف). وما كان لهذا التعظيم ليكون لولا العلاقة

www.SID.ir

Archive of SID

القائمة بين الطرفين، تلك العلاقة التي أوجدها ظرف الأبوّة من ناحية، وظرف البنوة من ناحية أخرى. ووصل إلى الموقف نفسه حين تعرّض لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يعمل مثقال ذرّة خيراً﴾. فالجزاء بما فوق المثقال[34] ليس هو المطلوب هنا، ولكن دقة الحساب. ووقف هم الحصول على الحكم الشرعي حائلاً في موضع ثالث أيضاً. فقوله تعالى: ﴿ إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ ﴾ لا يعني أن تجاوز السبعين إلى رقم أعلى لا يؤدي الى الغفران بقدر ما يعني الإشارة الى عظم ذنب لا يغتفر. وتناول الشهيد الثاني (قده) هذا المستوى من الدلالة يعني أن النص عنده أوسع من اللغة. وهذا ما دفعه ليتوسل مفهوم الموافقة في البحث عن الدلالة، وإن لم يكن مطلوباً منه أن يسميه المنهج البراغماتي أو المنهج السيميولوجي بسبب انتمائه الزماني. كل ما نستطيع أن نقوله بهذا الصدد أنه أحس إحساساً قويّاً، كما أسلفنا، بأن المنهج اللساني عاجز وحده عن الوصول إلى الدلالة؛ لأنّه يقف عند حدود دالّ الكلمة، بعكس منهج (الموافقة) الذي يرى النص إشارة يتضمن دالها القصد[35]. وحين يتعلق الأمر بالنص القرآني نجد أنفسنا قد انفتحنا على منهج

www.SID.ir

Archive of SID

دلالي أسماه القرآن الكريم التأويل. والتأويل لم يكن لرفع التناقض بين العقل والنص، ولا لتغليب دلالة على أخرى كما ذهب بعضهم [36]. فقد أشار إليه القرآن الكريم لا ليدفع به حرج، أو يقام بعملية اختيار بين دلالات يحتملها النص. فالحقيقة غير ذلك؛ لأن القائم بالتأويل حامل رؤية ومحاط بظرف يواجه بهما نصا (علامة) تحدد الرؤية الدلالة، وإن أقرت تلك الرؤية وذلك الظرف بوجود غيرهما من الرؤى والظروف التي قد تصل إلى حقائق دلالية مختلفة. والتأويل بما يوليه من أهمية للمتلقي ورؤيته إيماءة واضحة إلى منهج ثالث في البحث عن الدلالة. عنينا به نظرية التلقي التي تشرك المتلقي في إنتاج الدلالة، وإن كانت الشراكة، فيما يتعلق بالنص القرآني، قادرة على إعادة المشارب جميعها إلى النبع الواحد؛ لأن المتلقي بالنسبة إليه جزء من دلالته [37]. ولا تنفصل هذه النظرية عن المنهج المزدوج: البراغماتي السيميولوجي، ولكنها تعزّزه حين تستسيغ نظامه المطواع القابل لتعدد القراءات على حساب النظام اللساني الذي يعد منهجاً دقيقاً في تأدية الدلالة إذا ما عزل عن غيره من الأنظمة.

www.SID.ir

Archive of SID

4- الشهيد الثاني (قده) وأسئلة اللغة العربية عن نفسها:

شغلت بالَ العاملين في حقل اللغة العربية، داخل الإطار القرآني، ثلاثة أسئلة. يتعلق الأوّل بثنائية (اللفظ/ المعنى) المحددة لمفهوم الكلام، والثاني بثنائية (الحقيقة/ المجاز)، والثالث بثنائية (التوقيف/ المواضعة). وما كنا لنتوقف عند هذه الأسئلة لولا علاقتها بالدلالة. إذ يترتب على الميل إلى هذا الطرف أو ذاك من الثنائيات الثلاث تبايناً في تحديد حقيقة الدلالة.

4-1 الشهيد الثاني وثنائية (اللفظ/ المعنى): شهدت الساحة الثقافية العربية الإسلامية موقفين أساسيين من هذه الثنائية. قال الشيعة والمعتزلة، إن الكلام هو تلك الألفاظ والأصوات. وذلك بناء على قولهم بحدوث كلام الله. وقال الأشاعرة: إن الكلام هو المعنى القائم في النفس، وذلك بناء على قولهم بقدم كلام الله تعالى [38]. ولقد أدى هذا الافتراق في فهم الكلام إلى افتراق في الوقوف عند حقيقة الدلالة. ولقد أشار الشهيد الثاني (قده) إلى هذه المسألة

www.SID.ir

Archive of SID

بوضوح[39] مؤسساً عليها افتراق المؤلف في تحديد الدلالة. ناقش عبارة (إني صائم) في حديث الرسول(ص): «فإذا كان يوم صيام أحدكم، فلا يرفث ولا يجهل. فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم»[40].

فرأى جماعة، ولعلهم الأشاعرة، ألا «معنى لذكره بلسانه إلا إظهار العبارة»[41]، وذهبوا الى أن المقصود بتلك العبارة تذكير النفس بالصيام لتنزجر[42]، بينما رأى فريق آخر، وهم الشيعة أن المطلوب أن يقول تلك العبارة (إني صائم) بلسانه «حملاً على المعنى الحقيقي»[43]. ولئن استفاض في متابعة هذه المسألة من خلال أمثلة عديدة[44]، فإنه قد انطلق من هذه الحقيقة ليلاحق أبعاد مفهوم الكلام بشكل دقيق من خلال متابعته مسألة اختلاف الكلام عن كل من الكتابة والإشارة حين قال: «إطلاق الكلام على الكتابة والإشارة وما يفهم من حال الشيء، اطلاق مجازي على الصحيح، لا من باب الاشتراك»[45] وإذا أراد أن يوضح لنا كلامه هذا جاء بمثل مفاده أنه لو حلف أحدهم «لا يكلمه، فكاتبه، أو أشار إليه، فلا يحنث بذلك»[46]. منطلقاً في موقفه الشيعي بأن

www.SID.ir

Archive of SID

الكلام هو تلك الألفاظ والأصوات، وإن التقى بذلك مع سوسير[47]، فإنه لم يختلف مع بارت الذي أعطى الأولوية للكتابة في الدراسات اللغوية[48]؛ لأنّه حين أقام الحدود بين الكلام والكتابة لم يلغ طرفاً (الكتابة مثلاً) لحساب طرف آخر (الشفوية). فكلاهما عنده صالح أساساً لدراسات لغوية تتعلق به.

2-4 الشهيد الثاني (قده) وثنائية (الحقيقة/ المجاز) : وكما كان لمفهوم الكلام، لفظاً أو معنى، تأثير في تحديد اتجاهات البحث الدلالي عند الشهيد الثاني، فإن ثنائية (الحقيقة/ المجاز) لها تأثيرها الواضح في ذلك أيضاً. وإذا رأى أن الحقيقة ثلاثة أنواع: لغوية، وعرفية، وشرعية، ويترتب على معرفة نوعها، معرفة حقيقة الدلالة، بعد أن وضع هذه الأنواع الثلاثة بشكل تراتبي: «الحقيقة الشرعية، ثم العرفية، ثم اللغوية»[49]؛ فإن وضع الحقيقة اللغوية في أسفل السلم إشارة واضحة إلى سيطرة الدلالتين البراغماتية والسيميولوجية عنده على الدلالة السيمانتيكية، فحين تتقابل الحقيقة اللغوية مع تلك العرفية ذات العمق البراغماتي، تكون الغلبة للثانية كما

www.SID.ir

Archive of SID

رأينا عند من يحلف أنه لا يبني بيتاً[50]. فالبناء حقيقة لغوية في مباشرة الحالف له، وهو حقيقة عرفية إذا تم بواسطة غيره. ويقتضي تقديم الحقيقة العرفية دلالة مختلفة بتفاصيلها، وإن اتفقت مع الحقيقة اللغوية من خلال العنوان العام بناء البيت.

وكذلك حين تتقابل الحقيقتان اللغوية والشرعية، فالغلبة للثانية كما نرى عند من ينذر الصلاة، مع العلم أن كلمة صلاة من الألفاظ المنقولة شرعاً عن معناها اللغوي. إذ كانت الصلاة اسماً للدعاء[51]، ثم نقلت شرعاً إلى ذات الركوع والسجود. فالناذر لا ينذر الصلاة بمعنى الدعاء اللغوي، ولكن بمعناها الشرعي استناداً إلى سيطرة الحقيقة الشرعية على الحقيقة اللغوية[52]. ولا يُصرف الكلام إلى المجاز عند الشهيد الثاني إلاّ إذا «تعذّر الحمل على الحقيقة لدليل خارج»[53]، وهو إذا رأى أن النكاح لا يُطلق على العقد والوطء على الحقيقة، في الحالين، فلأنّ الاشتراك مرجوح بالنسبة إلى المجاز. فاللفظ ليس من باب المشترك. والمعنى مختلف بين قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ (النساء، 22)، وقوله تعالى: ﴿فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعد

www.SID.ir

Archive of SID

حتى تنكح زوجاً غيره﴾ (البقرة، 230)، ويستنتج الشهيد الثاني، بناء على ذلك، أنها حقيقة في واحدة منهما، ومجاز في الأخرى، من خلال العلاقة السببية. فالعقد سبب في الوطء[54]. وإذا رأى أن إطلاق الكلام على الكتابة إطلاق مجازي[55]، فلأن التحول من الحقيقة إلى المجاز لا يعني أن تطل الحقيقة نفسها من خلال برقع جديد. فالمجاز منهج تعبيري لا يموّه الحقيقة بل يبحث عنها من خلال قراءة مختلفة، ولذلك فهو حين يواجه جانباً من جوانب الوجود (الكتابة هنا) إنما يلجأ إلى تسميته باسم غيره (الكلام)؛ لكي يكتشف فيه من خلال التسمية الجديدة أبعاداً لا يطالها الاسم الحقيقي. ويبقى أن هاجس التفريق بين الحقيقة بأنواعها والمجاز بأنواعه، هو هاجس دلالي يتوسّل جميع الطرائق الموصلة إلى الدلالة، حتى وإن لم يكن على وعي كامل بمقوّمات هذه الطرائق وتبايناتها، وإذا كان هذا طبيعياً في مرحلة ما كانت لتسمح بمثل هذا المستوى من الوعي، فإن نشاط الشهيد الثاني (قده) الدلالي كان نشاطاً خلاّقاً يؤدّي دوراً تأسيسياً؛ لأنّ الوعي البشري استمراريّة، على اختلاف الأزمان والأمكنة، حتى ولو لم يتم الاتصال بين الأمم

www.SID.ir

Archive of SID

بشكل واضح. فهو سيتم بشكل غير معلن

3-4 الشهيد الثاني (قده) وثنائية (التوقيف/المواضعة): ولا تقلّ هذه الثنائية أهمية عن سابقتها في توجيه تيارات علم الدلالة وتحديدها، فمن المعلوم عند الشهيد الثاني (قده) أنّ الأشعري قد ذهب إلى أنّ اللغة توقيف بشكل مطلق، وذهب أبو هاشم الجبّائي المعتزلي إلى أنها مواضعة وبشكل مطلق أيضاً[56]، ولئن اتفق مذهب كل منهما مع منطلقاته الأساسيّة في فهم الكلام بين قديم ومحدث، فإنه سيترتب على ذلك افتراق في تحديد الدلالة. ففيما يتعلق بمهر السرّ، «وهو إذا تزوّج الرجل امرأة بألف، وكانا قد اصطلحا على تسمية الألف بألفين، فإنّ الواجب ألف على ما يقتضيه الاصطلاح اللغوي عند من يقول باصطلاحية اللغة كالشيعة والمعتزلة، أما عند من يقول بالتوقيف فالقول بالبطلان؛ لأن الموضوع اللغوي غير ملفوظ، والملفوظ غير مقصود، ولا يتم العقد إلاّ بهما»[57]، إذ أنّ في الأمر مخالفتين للحقيقة، الأولى هي أنّ دلالة كلمة (ألفين) توقيف، ولا يمكنها أن تدلّ على معنى غير معناها التوقيفي، والثانية في الإضمار مع أنّ شرط الزواج الإعلان. وينطبق الأمر نفسه عند الشهيد

www.SID.ir

Archive of SID

الثاني (قده) على من باع أو أعتق، وطلّق، أو حلف ثم ادّعى عدم إرادة المعنى من اللفظ، «فإن قلنا أنّ اللغات توقيفية لم يلتفت إلى دعواه، وإن قلنا إنها اصطلاحية دين بنّيته»[58]، اللفظ نفسه، أمّا الدلالة فمختلف حولها. وهذا عائد إلى تأثير ثنائية (التوقيف/المواضعة) في ذلك.

كلمة أخيرة:

ويبقى أنّ الإطلالة على علم الدلالة العربي الإسلامي من خلال الشهيد الثاني كانت إطلالة مفيدة، لم تقدّم لنا الجهود المضنية التي بذلها علماؤنا في مجال علم الدلالة فحسب، ولكنّها كشفت لنا عن إصالة تعاطيهم مع هذا العلم أيضاً. ولئن رأى الغربيّون في سوسير بداية تحول الدراسات اللغوية إلى دراسات علمية، فلأنهم يرون أن العالم هو الغرب وحده، ضاربين بذلك الصفح عن الجهود العربيّة الرائدة في هذا المجال، والتي سبقت سوسير بقرون عديدة إلى الحديث عن منهج دلالي يقع خارج المنهج اللساني، لا بل عملت بموجبه في البحث عن دلالة النص القرآني. ولعلّ ظاهرة التأويل التي قدّمها النص القرآني بوصفها منهجاً دلالياً مستقلاً جمع نظرية التلقي إلى المنهج السيميولوجي،

www.SID.ir

Archive of SID

هي ظاهرة عربية إسلامية من دون منازع، وإذا كان الأمر كذلك فإننا لا نجد موريس أبو ناضر مغالياً حين سمّى تلك الجهود كنوزاً ثمينة[59]، ودعا إلى كشف الغطاء عنها؛ لأنها «في مصاف الجهود العالمية في هذا الحقل اللغوي الذي يعد من أبرز الحقول العلمية حداثة، نظراً لارتباطه بالعلوم الإنسانية والاجتماعية»[60].

الهوامش:

1- نقل كلاهما إلى العربية باسم (علم الدلالة)، وإذا عرّبوا كلمة (semantique) (السيمانتيك) للدلالة على أحدهما أطلقوا على الآخر (علم الدلائل) و(الدلائلية) و(السيميولوجيا).
2- عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة، دمشق، اتحاد الكتّاب العرب، 1980، ص 50.
3- دي سوسير، محاضرات في الألسنيّة العامة، ترجمة يوسف غازي، لبنان، دار نعمان، 1984، ص 18.
4- عدنان بن ذريل، م.س، ص 53.
5- عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة، ص 54.
6- منذر عياشي، اللسانيات والكلمة، حلب، مركز الإنماء الحضاري، 1996، ص 54.
7- جوليا كريستيفا، الدلائلية علم أو نقد للعلم، العرب والفكر العالمي، العدد الأول، 1988، ص 61.
8- بارت، علم الأدلة، ترجمة محمد البكري، اللاذقية، دار الحوار، 1987، ص 47 وما بعدها.
9- عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب، بيروت، دار الطليعة، 1985.

www.SID.ir

Archive of SID

10- الشهيد الثاني، تمهيد القواعد، تحقيق تبريزيان الحسيني، ضياء، خرسان، مراكز الإعلام الإسلامي، 1416 هـ، ص 29.
11- الشهيد الثاني، تمهيد القواعد، تحقيق تبريزيان الحسيني، ضياء، خرسان، مراكز الإعلام الإسلامي، 1416 هـ، ص 399.
12- منذر عياشي، م.س، ص 95.
13- منذر عياشي، م.س، ص 91 - 92.
14- علي حرب، التأويل والحقيقة، بيروت، دار التنوير، 1985، ص 37.
15- منذر عياشي، م.س، ص 10.
16- م.ن، ص 93.
17- جوليا كريستيفا، م.س، ص 63 و 66.
18- منذر عياشي، م.س، ص 93 وما بعدها.
19- مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، عالم المعرفة الكويتية، عدد 193، 1995، ص 76.
20- محمد عابد الجابري، خصوصية العلاقة بين اللغة والفكر في الثقافة العربية، بيروت، دراسات عربية، نيسان 1982، ص 70 - 71.
21- منذر عياشي، م.س، ص 102.
22- م.ن، ص 13.
23- م.ن، ص 67.
24- م.ن، ص 11.
25- الشهيد الثاني، م.س، ص 389.
26- الشهيد الثاني، التمهيد، ص 354.
27- الشهيد الثاني، التمهيد، ص 354.
28- م.ن، ص 345 - 355.
29- الشهيد الثاني، التمهيد، ص 375.
30- الشهيد الثاني، التمهيد، ص 375.
31- أدونيسن الكتابة وآفاق النص القرآني، ص 20.
32- الشهيد الثاني، م.س، ص 108.

www.SID.ir

Archive of SID

33- الشهيد الثاني، م.س، ص.ن.
34- الشهيد الثاني، م.س، ص.ن.
35- منذر عياشي، م.س، ص 76.
36- علي حرب، م.س، ص 35 - 37.
37- منذر عياشي، م.س، ص 102.
38- للتوسّع في هذه المسألة، علي زيتون، الإعجاز القرآني وأثره في تطوّر النقد الأدبي، بيروت، 1992.
39- الشهيد الثاني، م.س، ص 79.
40- صحيح البخاري، (كتاب الصوم)، 34/3.
41- الشهيد الثاني، م.س، ص 80.
42- م.ن، ص.ن.
43- م.ن، ص.ن.
44- م.ن، ص 80 - 81.
45- م.ن، ص 322.
46- الشهيد الثاني، م.س، ص 332.
47- سوسير، م.س، ص 17 وما بعدها.
48- بارت، م.س، ص 68 - 69، درس السيميولوجيا، ترجمة ع. سعيد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، ط 3، 1993، ص 46.
49- الشهيد الثاني، م.س، ص 58/95.
50- الشهيد الثاني، م.س، ص 98.
51- المعجم الوسيط، ص 396.
52- الشهيد الثاني، م.س، ص 99.
53- م.ن، ص 96.
54- الشهيد الثاني، م.س، ص 101.
55- م.ن، ص 132.
56- الشهيد الثاني، م.س، ص 81.
57- م.ن، ص 82.
58- الشهيد الثاني، م.س، ص 83.
59- موريس أبو ناضر، م.س، ص 37.
60- م.ن، ص.ن.

www.SID.ir